الفصل الرابع

نشيد من ملحمة له عنوانها غلواء

مضت أشهرٌ تُذرِّت للعطرْ وأظلم فيها الضحا والسحرْ
وأقبل نوارُ — عرسُ الطبيعة — يضحك في ورقات الشجرْ
يدغدغُ بالظل عشبَ الحقول ويطبع ألوانهُ في الزهرْ
ويبني على الهضبات ستاحفَ تسخر من هذيان البشرْ
كأنَّ عباقرةَ الجن فيها سكنَّ وعلَّقن تلك الصورْ
تخفُّ الشبابُ ندىَّ الحياة يستقبل الحُلُمَ المنتظرْ
على ثغره بسماتُ الربيع وفي قلبه بسماتٌ أُخرْ

***

وفي يوم عيدٍ نقيِّ السماء كأنَّ السما صفحةٌ من سُوَرْ
أطلَّ شفيقٌ على الهضبات فراءَ الشبابَ عليها انتشرْ
وأبصرَ غلواءَ بين الزهور كحوراءِ بين شهيِّ الثمرْ
تسرحُ في عدنها نظراتٍ عرفن أزاهير خيرٍ وشرْ
وقد لبست ثوبها الزنبقيَّ عليهِ نسيج بلون الخضرْ
وألقت على العشب جسماً هزيلاً كغصنٍ من الياسمين انكسرْ
تخفُّ اليها وفيه عذابٌ بدا منهُ في مقلتيه أثرْ
وأثبتَ فيها عيوناً سكارى تجمَّد فيها رحيق الخدرْ
وقال: « لقد خلعَ الحقلُ عنهُ رداءَ الشتاء وغطى الحجرْ
وألقى عليه الربيعُ وشاحاً جمالُ الطبيعة فيهِ انحصرْ
فهلاَّ خلعتِ رداءَ الليالي والبستِ روحكِ ثوبَ البُكَرْ
وهلاَّ تشبهتِ بالياسمين فما كاد يحجبُ حتى ظهرْ
لقد غسلت بسماتُ الزهور ذنوبَ الشتاء الكثيف البصرْ
وعاد العفافُ الى الهضباتِ ففي كلِّ غرسٍ «فؤادٌ غفرْ»

فقالت : « أُطاول أن أُناسي زماناً مضى وخيالاً عَبَرْ ... »

فقال : « وماذا يمثّل هذا الخيالُ ؟ »

فقالت : « غراماً عَثَرْ ! »

فقال لها : « أوضحي ، بالسماء ! ... وهذا الغرامُ ؟ »

فقالت : « دَعَرْ ! »

فقال ، وقد جحظت مقلتاه : « وهذا ؟ »

فقالت : « حبيباً هَجَرْ ! »

— وهذا الحبيبُ ؟ !

— غفرتُ له ... ويعفو إلهك عمّا بَدَرْ

غَفَرتُ كما غفرتْ في الربيع زهورُ الرُبى لشتاءٍ كَفَرْ
ولكنّ بي ندماً كالنهيب يريني الحياةَ خلالَ الشررْ !

. . . . . .

وكان النسيمُ يهزّ الغصونَ فينشر في الجوّ عطرَ الزهورِ
كأنّ العطورَ خطايا عذارى حلمْن بأثمارها في الخدورْ
ولمّا أفقْنَ اعترفنَ بها وقد هزّهنّ الضميرُ الطهورْ
وكان المساءُ على الهضباتِ يَنفضُ اشباحهُ في فتورْ
وشمس المغيب تعيرُ الظلالَ ألوانها في مطاوي الصخورْ
فقال شفيقٌ ، وفي قلبهِ رجاءٌ يموتُ وحبٌّ يثور
« عشقتكِ ، يا غلوَ ، عشقاً نما شقيَّ الرؤى في شواطىء صُورْ
وكنتِ من الداءِ في نشوةٍ تريكِ الحياةَ ظلاماً ونورْ
ظلاماً تلمّستِ فيهِ القناةَ ونوراً تنشّقتِ فيهِ العُرورْ
وما ذاكِ الاّ لأنّ فؤادكِ ما ذاقَ في الحبِّ صدقَ الشعورْ
جهلتِ حقيقةَ وجهِ الهوى نخاتِ الهوى وجهَ مينٍ وزورْ
ولما سكرتِ بكذبِ الأغاني وعوّدتِ قلبكِ تلكَ الخمورْ
أنفتِ فلم تجدي في الكؤوس إلاّ قذارةَ خمرِ الثغورْ

جعلت الهوى فكرت الربيع ... وقد تكرين غير البدور
ومن لم يقدر له أن يشم ... يكر حتى أريح العطور ! »
فقالت : « صدقت ولكني ... أحس بقلبي خفاق الجذور
فأنت ترى في الربيع الجمال ... وأبصر أزهاره كالبدور
وتبصر في الزهر لون الحياة ... وأبصر في الزهر لون القبور ! »
فقال : « ترين بعين القنوط ... الجمال الذي أيدته الدهور
فهذا الربيع سيبقى ربيعاً ... وهذي الزهور ستبقى زهور
ولكن في أعين اليائسين ... زجاجاً يريها نواحي الشرور
لئن كنت دنست تلك العيون ... وذاك الفؤاد بماء النجور
ولم تسمعي نغمات الخفاف ... ولم تنشقي في العفاف البخور
فقد كفر الدمع عما جنيت ... وصادفت يا غلو قلباً غفور ! »

***

وأهوى على صدرها باكياً ... وأهوت على رأسه باكية
وما هي إلا دقائق حتى ... تلاشت رؤى نفسها الدامية
فأدنت الى ثغره ثغرها ... على مشهد من تقى الرابية
على مشهد من نقاء الزهور ... العذارى ومن عفة الساقية
فأحرق ثغر شقيق على ... مراشفها القبل الماضية !

***

وإذ صعد البدر خلف الجبال ... وذاب على الربوة العالية
وهومت الطير بين الغصون ... لتحلم أحلامها الصافية
ولم يبق يسمع في الحقل إلا ... تنهد شبابة الراعية
أفاق الحبيبان من سكرة ... الدموع الى سكرة ثانية
وظلا من السكر في نزوات ... تطهرها عفة باقية
الى أن دنا موعد الافتراق ... وأصفرت الانجم الساهية
كأن النجوم الذليلة في الأفق ... رشح خمور على خابية
كأن النجوم زفير خطايا ... تصعده ليلة زانية !